الأساطير المؤسِّسة للإسلاموفوبيا الفرنسية

طيبي غماري*

ملخص: يؤدي التوجيه والتوظيف للقضايا المرتبطة بالإسلام في فرنسا إلى صناعة ما يمكن تسميته بالأساطير المؤسِّسة للإسلاموفوبيا الفرنسية، وهي مجموعة من المقاربات التي تنذر الغرب بخطر محدق، مصدره الإسلام والمسلمون، وتزعم أنها ستؤدي إلى زوال فرنسا ثمّ أوروبا، ومن ثَمّ تُسهم هذه الأساطير في تعزيز وديمومة العواطف الإسلاموفوبية والعنصرية تجاه المسلمين. تحلّل هذه الورقة خمس أساطير مؤسِّسة للإسلاموفوبيا الفرنسية، وتَعرض مبررات تناول الإسلاموفوبيا الفرنسية، إضافة إلى الأساطير الخمس المؤسِّسة للإسلاموفوبيا الفرنسية، وهي: أسطورة التبديل الكبير، وأسطورة إعادة استعمار أوروبا، وأسطورة لا وجود لإسلام معتدل (الإسلاميون هم نفسهم المسلمون)، وأسطورة النقاء والسمو العرقي لليمين المتطرف، وأسطورة تهوين الإعلاميين والسياسيين الفرنسيين من خطر منظّري الإسلاموفوبيا.

* جامعة معسكر، الجزائر

The Myths of Islamophobia in France

TAİBİ GHOMARİ*

ABSTRACT The political, ideological and media role in France has been instrumental in spreading Islamophobic sentiments which alert people about the imminent threat of Islam spreading in France and Europe. These myths result to extremism against Muslims in France and Europe. This paper focuses on five main myths related to Islamophobia in France. These are: Renaud Camus' myth i.e 'The myth of the great replacement,' Guillaume Faye's myth: 'The myth of the re-colonization of Europe,' Eric Zemour's myth: 'Zero difference between Islamists and Muslims,' 'The myth of the superiority of Europe's far right,' and the French media myth: 'The Islamophobia magnification,' Definition of Islamophobia, choosing France as a case study and analysis on the observations will also be discussed.

* Mascara University, Algeria.

رؤية تركية
2016 - 4
128 - 115

تقدّم الإسلاموفوبيا نفسها في المجتمع الفرنسي على أنها ردّ فعل على الإرهاب الإسلامي، فالعنصرية وكراهية الإسلام بناء على هذا المنطق ليستا إلا دفاعًا عن النفس، يمارسه الإنسان الفرنسي للدفاع عن مسيحية فرنسا وهويتها الوطنية، حتى لا يدنّسها الإسلام والمسلمون، ينتج عن هذه الرؤية الكثير من الصور النمطية والوصمات التي أُلصقت بالمسلم عنوة، فـ"هناك، اليوم، الكثير من الوصمات التي تشكّل صورة المسلم التي ينتجها الإعلام في شمال أمريكا وأوروبا ومناطق أخرى من العالم..."[1]؛ أي أن تصوير الإسلام بهذا الشكل هو إصرار على استمرار وديمومة الرؤية العنصرية التي أبدعتها اليهودية والمسيحية ضد الإسلام والمسلمين منذ القرن الثاني بعد ظهور الإسلام، وواصلتها الأيديولوجيا الغربية في العصر الحديث، لتصبح العنصرية والكراهية للإسلام والمسلمين عاطفة يهودية مسيحية تتخفى وراء الأيديولوجيا التوسعية والعلمانية الغربية. يؤدي التوجيه والتوظيف السياسي والأيديولوجي والإعلامي للقضايا المرتبطة بالإسلام في فرنسا إلى صناعة وترقية ما تُمكن تسميته بالأساطير المؤسِّسة للإسلاموفوبيا الفرنسية. وهي مجموعة من المقاربات التي تنذر الغرب بخطر محدِق، مصدره الإسلام والمسلمون، ستكون نتيجته النهائية زوال فرنسا في المرحلة الأولى، ثم زوال أوروبا في نهاية المطاف، ومن ثَمّ تسهم هذه الأساطير في تعزيز العواطف الإسلاموفوبية والعنصرية وديمومتها تجاه المسلمين، ليس هذا فحسب بل إن تناول موضوع الإسلاموفوبيا وفق هذا المنطق العنصري يعطي المسوّغ السياسي والاجتماعي للمزيد من العدوانية والتطرف ضد الإسلام والمسلمين.

سأتناول في هذه الدراسة خمس أساطير مؤسِّسة للإسلاموفوبيا الفرنسية بالشرح والتحليل، بعد تقديم مختصر لمعنى الإسلاموفوبيا، ومعنى الأسطورة المؤسِّسة، متبوعين بعرض مسوِّغات تناول الإسلاموفوبيا الفرنسية.

وتتمثّل الأساطير الخمس المؤسِّسة للإسلاموفوبيا الفرنسية في:

1. أسطورة التبديل الكبير لـRenaud Camus

2. أسطورة إعادة استعمار أوروبا لـGuillaume Faye

3. أسطورة لا وجود لإسلام معتدل (الإسلاميون هم أنفسهم المسلمون) لـ Eric Zemour

4. أسطورة النقاء والسمو العرقي لليمين المتطرف.

5. أسطورة تهوين الإعلاميين والسياسيين الفرنسيين من خطر منظّري الإسلاموفوبيا.

ثمّ أنهي الورقة بخاتمة أعرض فيها أهم الملاحظات والاستنتاجات التي يؤدّي إليها هذا التحليل.

الأساطير المؤسِّسة للإسلاموفوبيا الفرنسية: تعريف وتبرير:

نحتاج قبل الغوص في تحليل الأساطير المؤسِّسة للإسلاموفوبيا الفرنسية، إلى تقديم تعريف مقتضب لكل من الإسلاموفوبيا والأسطورة المؤسِّسة، كما نحتاج إلى تسويغ سبب تخصيص فرنسا وإسلاموفوبيتها بهذا البحث.

معنى الإسلاموفوبيا:

الإسلاموفوبيا مسألة مرتبطة بشكل وثيق بالتمييز العنصري، فهي "ليست مجرد إحياء للحروب الصليبية ضد الجهاد، بل إنها شكل حديث للعنصرية المعادية للإسلام" [2]، وهو الذي يجعل منها قضية حقوق الإنسان بالدرجة الأولى. إنْ رُبِطت الإسلاموفوبيا بمفهوم الفوبيا –وهي حالة مخاوف مرضية– فإن السلوك الإسلاموفوبي سَيكون نوعًا من الباثولوجيا، إذن من الناحية الاشتقاقية "تأتي الفوبيا من الكلمة اليونانية (phobos) التي تعني الخوف المرضي، وهذا ما يقدّم الإسلاموفوبيا على أنها رد فعل على الخوف من خطر يواجهنا، والذي نعدّه –خطأً أو صوابا– خطرًا موضوعيًّا. في الحقيقة تمثّل هذه الفوبيا شكلًا من الباثولوجيا الاجتماعية" [3]. فالإسلاموفوبيا تعبّر بوصفها باثولوجيا اجتماعية عن خلل جماعي في التفكير وفي الإحساس، يمارسه غير المسلمين تجاه المسلمين.

في مستوًى ما يُجمع الباحثون والمفكرون على تعريف الإسلاموفوبيا بأنها "مخاوف أو أحكام مسبقة تجاه الإسلام والمسلمين والمسائل المرتبطة بهما" [4]، مخاوف وأحكام مسبقة تأخذ شكل صور سلوكية عدوانية عنيفة: رمزية أو فعلية تجاه المسلمين، تصل إلى درجة الاعتداءات الجسمانية. بهذا المعنى تتساوى الإسلاموفوبيا مع التمييز العنصري تجاه فئة من المجتمع الغربي بسبب انتماءاتها الدينية، وهذا ما دفع ببعض المفكرين إلى الضغط على المفهوم ليتجه به مباشرة نحو العنصرية ضد المسلمين، إذ يفضّل Ömür Orhun استعمال الإسلاموفوبيا تعبيرًا عن "اللاتسامح والتمييز العنصري ضد المسلمين والإسلام" [5].

الإسلاموفوبيا مسألة مرتبطة بشكل وثيق بالتمييز العنصري، فهي "ليست مجرد إحياء للحروب الصليبية ضد الجهاد، بل إنها شكل حديث للعنصرية المعادية للإسلام"

تحوّلُ هذه الشحنة المفاهيمية الإسلاموفوبيا إلى مفهوم قابل للتطبيق على كل الفضاءات التي يتعرض فيها المسلمون لإفرازات الكراهية واللاتسامح من قبل الأديان والأجناس غير الإسلامية، سواء أكانت في أفريقيا أم في آسيا أم في أوروبا أم في شمال أمريكا، لكن الواقع يبين لنا أن هذا المفهوم يستعمل "لوصف أحاسيس الكراهية والسلوكات العدوانية التي بدأت تبرز وتكثر في أوروبا المعاصرة وأمريكا الشمالية" [6]، حيث تمثّل فرنسا طليعة العداء الإسلاموفوبي ضد المسلمين المقيمين في أراضيها والحاملين لجنسيتها.

الأسطورة المؤسِّسة

تعتمد المجتمعات في تشكيل وديمومة هوياتها وأنماط سلوكها الجماعية على ما يعرف بالأساطير المؤسِّسة، وهنا يصبح الحدث التاريخي، والقراءات التي نقدمها له، مرحلة مهمّة في حياة أي شعب من الشعوب، فزخم الأحداث التاريخية هو الذي يصنع الرمزية التي تنهل منها الأمة مرجعياتها المؤسِّسة لهويتها الجماعية، فـ"في كل مرة يُرجَع فيها إلى التأسيس نعمل على إحياء المشاعر المشتركة" [7]، وإحياء المشاعر المشتركة لا يكون إلا بإبقاء الأحداث التاريخية حية فينا مهما قَدُمت، لأنّ تكرار تخليد هذه الأحداث هو الذي يرسخ في شعورنا الجمعي مبدأ الأسطورة المؤسِّسة. بهذا المعنى تنبني معادلة الأسطورة المؤسِّسة على حدث تاريخي -قد يكون حقيقيًّا- مضاف إليه الكثير من القراءات والتأويلات التي لا تكون حقيقية بالضرورة؛ لأنه في هذا المستوى، لا يهمّنا مدى مصداقية هذه التأويلات، بقدر ما تهمّنا مقدرتها على خلق الشعور الجمعي وديمومته، ومن ثَمّة توحيد الهوية الوطنية حول مشاعر جمعية، وفي مواجهة عدو مشترك، نرى فيها تهديدًا لهذه الهوية الوطنية، ولهذا الشعور الجمعي والمشترك.

بناء على ما سبق يمكننا القول إن الأسطورة المؤسِّسة هي كل تأويل وكل قصة "تحكي المرجعية الرمزية للجماعة الإنسانية، للمدينة والشعب، كما تشرح لنا، كيف أصبحت الأشياء المختلفة في الأصل متماسكة، وكيف لا يمكنها أن تكون غير ما هي عليه" [8]، بالفعل تؤدّي الأسطورة المؤسِّسة دورًا رمزيًّا في المجتمع، إذ إنها تقوّي الرابط الاجتماعي أفقيًّا بين الأجيال، وعموديًّا بين الفئات الاجتماعية المختلفة، ويبرر لنا التناغم الاجتماعي القائم بالرغم من التناقضات الموجودة بين مختلف الفاعلين الاجتماعيين.

ترتبط رمزية الأسطورة المؤسِّسة بفكرة الانتماء والعدو المشترك للجماعة الاجتماعية، حيث إنه "في كل مرة يُرجَع فيها إلى التأسيس نعمل على إحياء المشاعر المشتركة" [9]، سواء بالحب لمن نعتقد أنهم منا، أم بالعداء تجاه من نعتقد أنهم ليسوا منا، أو أنهم يمثّلون خطرًا وجوديًّا علينا. تتمثل الغاية من وجود الحدث المؤسِّس في منح الأمّة أو الدولة والشعب جذورًا رمزية وغاية

تبرر وجودها، عادة ما تتمثل هذه الغاية في النضال من أجل حماية هذا الشعور الجمعي المشترك بوحدة الانتماء، من كل التهديدات الفعلية أو المتخيّلة التي تقدم بصفتها عدوًّا يمكن أن يُسهم في إزالة أسباب وجود الجماعة الإنسانية. إن التركيز على هذه الجذور والتهديدات المشتركة، وإعادة إنتاجها بشكل منظّم وممنهج، يؤدي إلى انبعاث جديد ونهضة متواصلة للشعب وللأمة، من خلال اختيارات سياسية ورمزية، لهذا السبب يجري البحث في التاريخ القديم والحديث والمعاصر للجماعة–عن أي حدث يشرعن الوجود في مكان ما وبصورة ما، مؤسِّسًا بذلك لنوع من التناسق الاجتماعي المولّد للرغبة في الانتماء للهوية الوطنية، التي يمكن لأتباعها أن يتحملوا مشاقّ الدفاع عنها ضدّ كل التهديدات الحقيقية والمتوقعة والمتخيّلة.

انطلاقًا من الفهم الذي سنعتمده للإسلاموفوبيا وللأسطورة المؤسِّسة، يمكننا فهم الأساطير المؤسِّسة للإسلاموفوبيا، على أنّها كل القصص والتأويلات والمقاربات التي تنطلق من واقع حقيقي أحيانًا، ومن واقع مشوه أحايين كثيرة، لتقدّم الإسلام والمسلمين على أنّهم خطر خفي يعمل بهدوء وبسرّيّة ونظام من أجل إزالة فرنسا، وبعدها أوروبا بصفتها هوية غربية ومسيحية، لتقام بدلها فرنسا وأوروبا بصفة هوية شرقية وإسلامية، علمًا أن الغاية من بناء هذه الأساطير وترقيتها وتقويتها هو تقوية منابع الكراهية ضد الإسلام والمسلمين، وبخاصة لدى العامة من الناس، من أجل تحقيق أهداف سياسوية في غالب الأحيان.

لماذا فرنسا؟

تقدّم المصادر الغربية الجمهورية الفرنسية على أنها أكثر الدول الأوروبية والغربية التي تنشط فيها الخطابات الإسلاموفوبية، والداعية إلى معاداة الإسلام والمسلمين، حتى إن الخطاب المعادي للإسلام والمسلمين أصبح في فرنسا –بدعوى تثبيت النظام اللائكي للجمهورية– سياسة رسمية للدولة بيمينها ويسارها. يلاحظ تقرير اللجنة الأوروبية لمناهضة العنصرية واللاتسامح لسنة 2016 والمخصّص لفرنسا[10]، أنه من الناحية التشريعية –إضافة إلى العديد من المخالفات التي أنتجت تشريعات فرنسية تميزية على أساس الإثنية والجنس والدين–لا ترغب الحكومة الفرنسية في المصادقة على البرتوكول رقم12 الذي أعتمده المجلس الأوروبي في سنة 2000، والذي يقرر المنع العام لكلّ أشكال التمييز، مما يجعله وثيقة أساسية لمحاربة العنصرية واللاتسامح [11] ، يظهر هذا التوجّه عدم وجود إرادة سياسية حقيقية لدى الحكومة الفرنسية في مواجهة مشكلة العنصرية واللاتسامح المتزايدة بشكل مقلِق في هذا البلد، وهذا الأمر انعكس على المجتمع والنخب والإعلام الفرنسي الذي أصبح يدعو إلى معاداة الإسلام من دون أي تردد، كما يؤكده التقرير في الصفحة 19 : "تلاحظ اللجنة أن الوضعية بخصوص الخطاب العدائي الإسلاموفوبي تبقى مقلقة، وتلاحظ أن رفض المسلمين يتغذى من الخطابات العدائية لعدد من المسؤولين السياسيين"[12] . سأكتفي بهذه الملاحظات، لأن هذه الورقة لا تسمح لي بعرض كل نتائج التقرير الأوروبي، الذي يصوّر فرنسا (جنّة للإسلاموفوبيا)، وهي كذلك بالفعل كما سنبينه لاحقًا. أعتقد أن هذه الملاحظات تكفي لبيان سبب تخصيصنا فرنسا

بالدراسة، فالإسلاموفوبيا الفرنسية رائدة على مستوى التنظير لكراهية الإسلام والمسلمين، إذ يَعدّ العنصريون الفرنسيون أنفسهم طلائع الدفاع عن الهوية اليهودية والمسيحية لأوروبا ضد الخطر الإسلامي الزاحف، كما أنهم يبنون هذه المقاربة العنصرية على خمس أساطير تنبني كلها على مجموعة من الأحكام المسبقة بخصوص الإسلام والمسلمين:

"1ـ يدعم الإسلام ثقافة أحادية تمنع بروز أيّ ثقافة مخالفة لها.

2ـ تختلف القيم الدينية الإسلامية كلية عن باقي الديانات والثقافات.

3ـ يُنظَر إلى الإسلام نظرة دونية بالمقارنة مع الغرب، ويُوصَف بأنه دين بربري ومتخلّف وغير عقلاني.

4ـ يدعم الإسلام مختلف مظاهر الإرهاب والعنف في المجتمع.

5ـ يصبح الإسلام أيديولوجيا عنيفة عندما يدخل الحلبة السياسية"[13].

تنطلق الأساطير المؤسِّسة للإسلاموفوبيا من هذه الأحكام المسبقة عن الإسلام لتقوم بتضخيمها، وتصوير الإسلام والمسلمين على أنهما منظمة سرّية تتآمر على الجمهورية والشعب الفرنسي، وتعمل في سرية تامّة، وفق مخطط مدروس من أجل الإطاحة بكل القيم الفرنسية الراقية، وهذا من خلال زرع المخاوف المرضية من الإسلام ومن المسلمين في نفوس الفرنسيين، ومن ثَمّ تطوير خطاب كراهية عنصري، يدعو بصريح العبارة إلى مقابلة عدوانية الإسلام المزعومة، بعدوانية فرنسية انتقامية ودفاعية، بغرض حماية الهوية والجمهورية الفرنسيتين. سنحاول فيما تبقى من هذه الورقة عرض هذه الأساطير المؤسِّسة للإسلاموفوبيا الفرنسية.

أسطورة التبديل الكبير لـRenaud Camus

رينو كامي من أبرز العنصريين الفرنسيين المتطرفين الذين لا يُخفون عداءهم للمهاجرين المسلمين، وهذا ما يعّبر عنه من خلال كتبه الكثيرة ومنشوراته الإعلامية المتواصلة، كما أنه صاحب أسطورة (التبديل الكبير) « Le grand remplacement »، وهو عنوان أهم كتبه[14]، والذي أُعِيد طبعه أكثر من مرة، وتتلخص فكرة هذه الأسطورة في أن المهاجرين المسلمين يعملون بهدوء وببطء وبنظام من أجل إحداث التبديل الكبير، بتغيير التركيبة السكانية والثقافية والاجتماعية والدينية لفرنسا في المرحلة الأولى، وبتغيير كامل أوروبا فيما بعد، بنقلهما من الفضاء الغربي المسيحي إلى الفضاء الشرقي الإسلامي. فالمسلمون بحسب كلامه يثأرون، في غفلة من الفرنسيين، لماضيهم الذي حطّمته المسيحية والاستعمار خلال القرون الوسطى، وبذلك يواصلون مشروع أسلمة أوروبا الذي بدأه أجدادهم في الماضي.

فالتبديل الكبير عند كامي هو مفهوم ثوري يهدف إلى تنبيه الأوروبيين على التغيير البطيء الذي يحدثه المسلمون على المستويات الديموغرافية والاستهلاكية والاقتصادية والثقافية والدينية والسياسية.

أُسِّست هذه الأسطورة على مبدأ أساسي هو تعزيز المخاوف المرَضية لدى الفرنسيين تجاه المهاجرين عمومًا، والمهاجرين المسلمين خصوصًا، حيث تروّج فكرةً مفادها أن المهاجرين المسلمين يقودون مؤامرة خطيرة ضد الهوية الفرنسية والأمة الفرنسية. يبقى الغرض من هذا التخويف هو تقوية يقظة الفرنسيين، وحذرهم من العدو الخفي الذي سكن وسط المجتمع، وراح يعمل على تفكيك القيم والأسس التي تقوم عليها الأمة الفرنسية، ويستبدل بها قيمًا وأسسًا إسلامية، وبهذا تُعدّ هذه الأسطورة واحدة من أكثر الأساطير تغذية للكراهية والعنف ضد المسلمين في فرنسا، وبهذا يمكن عَدّها واحدة من بين أهم الأساطير المؤسِّسة للإسلاموفوبيا الفرنسية.

رينو كامي من أبرز العنصريين الفرنسيين المتطرفين الذين لا يُخفون عداءهم للمهاجرين المسلمين، وهذا ما يعبّر عنه من خلال كتبه الكثيرة ومنشوراته الإعلامية المتواصلة، كما أنه صاحب أسطورة (التبديل الكبير)

أسطورة إعادة استعمار أوروبا لـGuillaume FAYE

جيوم فاي كاتب فرنسي عنصري، نشر كتابه (استعمار أوروبا) [15] في سنة 2000، وهو صرخة في وجه دولة القانون -كما يسمّيها- التي مهدت الطريق لاستعمار أوروبا من طرف المهاجرين المغاربة والأفارقة، أو المسلمين. منذ الوهلة الأولى، وفي مقدّمة الكتاب يعلن الكاتب عن أسطورة إعادة استعمار أوروبا، إذ يقول في الصفحة الثامنة من الكتاب: «هل ستشعر الشبيبة الأوروبية (إثنيًا) بالخطر وتدافع عن نفسها، متسلّحة بذاكرتها وإرادتها؟ يمكن لا. و يمكن نعم؛ وإذا كان الجواب نعم، فليست دولة القانون وشرطتها الضعيفة هما اللتان يمكنهما أن تقاتلا، بل الشعب نفسه؛ شعبنا (يقصد الفرنسيين خصوصًا، والأوروبيين عمومًا). في هذه الحالة لن يتعلق الأمر بحرب أهلية كلاسيكية بين إخوة أعداء (يقصد الأوروبيين الأصليين والأوروبيين من أصول غير أوروبية، أي المهاجرين)، بل ستكون حرب تحرير. فالتاريخ مضحك: و ستعيش فرنسا وضعية مشابهة للجزائر عام 1960... مع ذلك لا يجب أن ننكر للعدو نبله وإنسانية قضيته وعدالتها. فهو يملأ الفضاء الذي تُخلِيه؛ ويحافظ على ترابه ودمه؛ يوسّع ترابه بترابك، ويجدد دمه بدمك، فالعدو يلعب لعبته وهو محترم من هذا الجانب. فقط المتعاونون معه أي الخونة لا يشعرون بذلك» [16]، ثم يمضي بعد هذه المقدمة في كامل الكتاب محاولًا بالأدلة العلمية إثبات موقفه من المهاجرين المسلمين، وإثبات خطرهم على الأمة الأوروبية، ويتوقع أنها ستندثر كما اندثر الفراعنة، بسبب الخلل الديموغرافي الذي يتسبب فيه المسلمون بشكل مخطط ومقصود بحسب رأيه.

أُسِّست هذه الأسطورة على الفكر الاستعماري، فالمهاجرون بحسب فاي يثأرون لأجدادهم من خلال الاستعمار البطيء لكامل أوروبا، وهذا من خلال نشر الثقافة الإسلامية في كامل أوروبا، والسعي إلى إحداث التفوق الديموغرافي على العنصر الأوروبي، وبمواجهة ضعف الخصوبة الأوروبية بالخصوبة الزائدة عند المسلمين. ولا يتوقف هذا الكاتب العنصري عند

هذا الحدّ، بل يدعو إلى ثورة مسلحة ضد دولة القانون التي تحمي المهاجرين، بينما يعتدون على الفضاء والإرث الثقافي والاجتماعي والديني الغربي، فالكاتب متيقّن أن مواجهة هذه المؤامرة الإسلامية لا يمكن أن تكون إلا عن طريق حرب دموية عنيفة تتطلب الكثير من التضحيات من جهة الشعوب الأوروبية التي لا تزال مؤمنة بعظمة أوروبا.

من وجهة نظر فاي، تكون الثورة على دولة القانون بالتمرد، ومحاربة المهاجرين، وقتلهم، أو طردهم إلى بلدانهم الأصلية؛ لإنقاذ أوروبا من مصيرها المشؤوم. مرة أخرى تمثّل هذه الأسطورة من أكثر الخطابات تطرفًا وكراهية وعنصرية ضد الإسلام والمسلمين، حيث يقدّم هذا الكاتب المسوِّغات التاريخية، وحتى العلمية في اعتقاده، لما يسميه بثورة تحرير أوروبا، منخرطًا بذلك في شبكة إسلاموفوبية خطيرة، لا تكتفي بالأفكار المسبقة المعادية للمسلمين، بل تدعو إلى الفعل من خلال الاعتداء على القانون الذي أصبح في نظرهم خائنًا وخادمًا لأعداء أوروبا من الأوربيين والمهاجرين.

أسطورة (المسلمون والإسلاميون شيء واحد) لـ Eric Zemour

إيريك زمور يهودي فرنسي عنصري، من أكثر الوجوه الإعلامية عداء للإسلام والمسلمين، يناضل منذ سنوات من أجل إثبات أسطورته الداعية إلى عدم التفريق بين إسلام معتدل وإسلام متطرف، فالإسلام بالنسبة له شرّ كله، ولا فرق في ذلك بين معتدلين ومتطرفين. ينشط زمور إعلاميًّا، فقد كتب عدة مقالات وكتب تتمحور كلّها حول إحياء وتعزيز مخاوف الفرنسيين من الإسلام والمسلمين. يصوّر هذا العنصريّ المتطرّف الحياة الاجتماعية الفرنسية

على أنها حرب دائمة بين الدولة والمجتمع الفرنسي؛ بالدم من جهة، وبالهجرة من جهة أخرى؛ هي حرب ثقافية يستعمل فيها المهاجرون الإسلام سلاحًا لتقويض أسس الجمهورية، وتغيير ملامح الفضاء العمومي الفرنسي، وصبغه بصبغة الممارسات الطقوسية الإسلامية؛ مثل انتشار الحلال، والحجاب، ومنع شرب الخمر، واللغة، والموسيقى، والالتفاف حول العائلة... يقول إيريك زمور: "بحسب نص القرآن، هؤلاء المسلمون ليس لهم الحق في الإقامة في بلد الكفر. فالعالم مقسّم عندهم إلى دار إسلام ودار حرب، فعندما يشيّد المسلمون مسجدًا في مكان ما (في فرنسا)، فإن المسلم يقدّس المكان، فيتحوّل هذا المكان وبشكل مباشر إلى جزء من دار الإسلام، ومن ثمة يتمّ تطهيره وتقديسه وغسله من ذنوبه وقاذوراته، بطرد الكفار وتصحيح المسلمين العاصين"[17].

يتضح من هذا الموقف المتطرف كيف أن إريك زمور يحذر الفرنسيين من مجرد وجود المسلمين على الأراضي الفرنسية، من دون التمييز بين مؤمنين وعاصين، فبناء المساجد أو دُور العبادة مثلًا، لا يهدف إلى مجرد ممارسة الطقوس التعبدية، كما هو الشأن بالنسبة لباقي الديانات، بل إن الأمر يتعدى ذلك بكثير، حيث يَعدّ زمور، هذا الفعل جزءًا من الحرب القائمة بين دار الإسلام ودار الحرب، فكلّ ممارسة طقوسية دينية هي بمثابة زحف إسلامي من أجل توسيع دار الإسلام، ولو باقتطاع مساحات صغيرة من دار الحرب كما يزعم. بمثل هذا الخطاب الداعي إلى الكراهية والعنف ضد الإسلام والمسلمين، يؤسِّس زمور مسوِّغات الإسلاموفوبيا الفرنسية، فمنع المسلمين من ممارسة أي نشاط يرتبط بدينهم، لا يُعدّ عنده قمعًا، بل هو دفاع عن فرنسا حتى لا تتحول إلى دار الإسلام كلية. تتغذى الإسلاموفوبيا الفرنسية من هذا الخطاب العدواني والعنصري، الذي يكتفي بالمظهر، وأحيانًا كثيرة بالأسماء؛ ليميز بين الأصدقاء والأعداء، فكم من الموهوبين في مختلف الاختصاصات الفنية والرياضية والعلمية راحوا ضحية أسمائهم العربية والإسلامية في فرنسا.

أسطورة النقاء والسمو العرقي لليمين المتطرف

ينتظم اليمين المتطرف في أحزاب سياسية رسمية منسجمة من الناحية الشكلية مع قوانين الجمهورية، لكن من الناحية العملية تتعدّى هذه المؤسّسات بشكل مستمرّ على القوانين والتشريعات الفرنسية الغامضة أصلًا، والتي تمنع خطابات الكراهية على أساس الإثنية والدين يتبنى اليمين المتطرف أسطورة الجنس النقي والسامي الذي يجب أن لا يتلطخ بالأجناس الدخيلة وغير الأوروبية وغير النقية.

تميّزَ اليمين المتطرف في بداياته الأولى بمعاداة السامية، لكنّ ضغط اللوبيات اليهودية جعله يقتنع في السنوات الأخيرة، أن معاداة اليهودية مسألة خاسرة، ومن ثَمّ حوّل عداءه إلى الإسلام، مستفيدًا بذلك من التحالف مع اليهودية ضد المسلمين. تقول مارين لوبان (Marine Lepen) في أحد تجمعات الحملة الانتخابية للانتخابات الجهوية لسنة 2015 "ليس لنا خيار آخر إلا الفوز في هذه الحرب، لأنه إذا أخفقنا فإن الشمولية الإسلامية ستأخذ

تميّـزَ اليمين المتطرف فـي بداياته الأولى بمعـاداة الساميـة، لكـنّ ضغـط اللوبيـات اليهوديـة جعله يقتنع في السنوات الأخيرة، أن معاداة اليهودية مسألـة خاسرة، ومن ثَمّ حوّل عداءه إلى الإسلام، مستفيدًا بذلك من التحالف مع اليهودية ضد المسلمين

السـلطة في بلدنا... وتعوض الشريعة دستورنا، ويحلّ الإسـلام المتطرّف محلّ قوانيننا، سـتُهدَم منازلنا، وتُمنَع موسـيقانا، ويبدأ التطهـير الديني بموكبه الرهيب"[18]، يصـوّر اليمين المتطرف الفرنسـيين في مسـتويات أعلى من مسـتوى الشعوب الأخرى، والشعوب الإسلامية بالأخـص، ومـن ثـمّ يؤسِّـس كل أيديولوجيتـه عـلى التحذيـر من الإسـلام، لكونه خطـرًا ظلاميًّـا متخلّفًا يهـدد الثقافة الفرنسـية الراقية، ويكفـي أن نلقي نظرة عـلى خطابـات الأحـزاب اليمينيـة المتطرفـة، لنـدرك مسـتوى الكراهيـة التـي يكنّهـا اليمين المتطـرف للمهاجرين المسـلمين، ومن هنـا تُعدّ هذه الأيديولوجيـا مـن أخطـر مصادر الإسـلاموفوبيا في فرنسـا؛ لأنهـا تعتمد على مؤسسـات وقنـوات رسـمية يدعمها الدسـتور الفرنـسي. لم تعد المشـكلة مع اليمين المتطرف فحسـب بـل تعدتـه لتعـمّ اليمـين، وأحيانًا حتى اليسـار، حيـث نلاحظ في السـنوات الأخيرة بروز خطابـات كراهية متطرّفة ضد الإسـلام والمسـلمين، صـادرة عن أحزاب يمينية ويسـارية، كانـت في السـابق مناهضة لأيديولوجيـا اليمين المتطرف، إلى درجة أنه لم يعـد هناك الكثير من الفرق، وخطاب مارين لوبان وخطاب نيكولا سـاركوزي (Nicholas Sarkozy) مثـالانعـلىذلـك.

أسطورة تخفيف الإعلاميين والسياسيين الفرنسيين من خطر الإسلاموفوبيين:

يميـل السياسـيون والإعلاميـون المعتدلـون في فرنسـا إلى التهويـن مـن خطـر الخطابـات الإسـلاموفوبية التـي يبثّهـا العنصريـون والمتطرفـون، مـن خـلال اعتبـار أنهـا مجـرد تهويـل في فـراغ، وطـرح مؤامـرة خياليـة مـن أجـل الاسـتهلاك الإعلامي، والبحث عن الشـهرة على حسـاب الإسـلام والمسـلمين، لكن الممارسـة الواقعية تكذّب الكثـير مـن هـذه التصريحـات، وتفضـح النوايا الخفيـة لهـؤلاء، ليتحولوا هـم بدورهم إلى أبـواق إسـلاموفوبية، تبـثّ الحقـد والكراهيـة، ففـي سـنة 2007 صرح المرشـح للرئاسـة الفرنسـية نيكـولا سـاركوزي (Nicholas Sarkozy) قائـلًا: "يمكـن أن يُختـزَل الإسـلام في تعدّد الزوجـات، وختان الفتيات، وذبح الخراف في الشـقق"[19]، لا يخفي سـاركوزي، وكثـيرون غيره من رجال السياسـة والإعلام، احتقارهم للمسـلمين ولعقائدهـم وطقوسـهم، بدعـوى الدفـاع عـن الطابع الجمهـوري واللائكـي للدولة، وهـم بذلـك يدعمون بشـكل مباشر آراء وأفكار اليمـين المتطرف ومختلـف العنصريين، فـإذا كانـت الأسـاطير الأربـع الأولى تعمل على إيقـاظ الشـعب الفرنـسي، وتنبيهه على الخطر الإسـلامي الذي يهـدّده- فإن تأويلات الإعلاميـين ورجال السياسـة المعتدلين، تعمـل عـلى تنويـم المسـلمين وطمأنتهم، بادّعـاء أن الخطابـات الإسـلاموفوبية المتطرفة

ليست إلا تهويلًا إعلاميًّا بغرض الإثارة لا غير، في حين تّبين الإحصاءات تزايد الاعتداءات الإسلاموفوبية التهديدية والرمزية والفعلية، حيث نلاحظ أنها ارتفعت بين سنة 2014 و2015 بنسبة 223 في المئة[20]، وهو تطور خطير يعكس مدى الأثر الإيجابي للخطابات الإسلاموفوبية من جهة، والأثر السلبي للخطابات المطمئنة للمسلمين من جهة ثانية.

خاتمة

نخلص من خلال تحليل الأساطير المؤسِّسة للإسلاموفوبيا إلى النتائج الآتية:

1ـ معظم المساهمين في بناء هذه الأساطير وترقيتها من اليهود الفرنسيين، والكثير منهم من الصهاينة، ومن هنا يندرج موقفهم من الإسلام والمسلمين ضمن المسلّمات التي تدعمها الصهيونية العالمية، الساعية إلى تقديم الإسلام والمسلمين على أنهم خطر يجب القضاء عليه بكل الطرق والوسائل. المشكلة ليست في الصهيونية وأتباعها، وإنما في الفرنسيين من غير اليهود، الذين ينساقون بشكل ساذج وراء هذه الطروحات الصهيونية، حتى إنهم أصبحوا أخطر على الإسلام والمسلمين من الصهيونية نفسها.

2ـ يتطابق المنطق الذي تنبني عليه هذه الأساطير مع المنطق الذي سيّر الحروب الصليبية والحملات الاستعمارية الفرنسية، فما تروّج له هذه الأساطير هو محاولة استرجاع العنصريين الفرنسيين لما يعتقدون أنه مجدهم الضائع، إذ تصوّر هذه الأساطير الوجود الإسلامي في فرنسا، وكأنه استمرار للصراع الإسلامي المسيحي الأزلي في الحاضر، ومن ثَمّ فوجود المسلمين في فرنسا في نظرهم، ليس حتمية تاريخية للآثار الجانبية للمشروع الاستعماري الفرنسي، بل هو مؤامرة مخطط لها، ومبرمجة بذكاء متطور؛ لتغيير وجه فرنسا، وأسلمتها في المرحلة الأولى، ثم تغيير وأسلمة أوروبا كاملة في المرحلة الثانية.

3ـ تمكّن اليهود من خلال هذه الأساطير من أخذ فرنسا والفرنسيين رهائن، فالفرنسي اليوم مهما كان وضعه وقيمته العلمية أو الفنية أو السياسية أو الاقتصادية، لا يمكنه التفكير في العلاقات الإسلامية الفرنسية إلا ضمن منطق هذه الأساطير، وكلّ من يجرؤ على التفكير خارج هذا المنطق، يُعدّ بشكل آلي معاديًا للسامية.

4ـ يرفض منطق هذه الأساطير بوضوح وعلنًا، أيَّ طرح يسعى إلى إدماج المسلمين في المجتمع الفرنسي، فاليهود والنصارى الذين يدعمون هذه الأساطير لن يرضوا عن المسلمين، حتى لو اتّبعوا ملّتهم، وهذا في نظري ما أدركه وفهمه الجيل الجديد من المسلمين الفرنسيين. يوصلنا وعي المسألة بهذا الشكل، إلى فهم الأسباب التي تدفع الشباب المسلم في الغرب نحو التطرف، بالرغم من الجهد التربوي البيداغوجي الذي تبذله المؤسسات الرسمية لمكافحة التطرف والإرهاب. إن هذا المجهود يبقى ضعيفًا

وغير قادر على محو آثار الأثر التربوي والبيداغوجي لهذه الأساطير؛ لأن المؤسسات التربوية تقدّم لواقع فرنسي نظري، في حين تقدّم الأساطير المؤسِّسة للإسلاموفوبيا الفرنسية لواقع فرنسي عملي، وعند المقارنة بين الأثر النظري للمؤسسات الرسمية الفرنسية، والأثر العملي لهذه الأساطير، فإن الجنوح نحو التطرف والإرهاب لن ينجو منه إلا القلة القليلة من الشباب المغترب.

5ـ تعيش الأساطير المؤسِّسة للإسلاموفوبيا الفرنسية على منتجاتها، بمعنى أنها تدفع شباب المسلمين نحو التطرف والعنف والإرهاب، وعندما يحدث ما أرادت، تستثمر جنوح الشباب إلى هذا التطرف والعنف والإرهاب،لتقوية روحها وضمان ديمومتها وإطالة عمرها.

6ـ أسهمت هذه الأساطير في التحالف الإستراتيجي بين اليهود والصهاينة الفرنسيين من جهة، واليمين المتطرف الفرنسي من جهة ثانية، وكانت نتيجة هذا التحالف تخلّي اليمين المتطرف الفرنسي عن نزعته المعادية للسامية، لصالح تقوية النزعة الإسلاموفوبية، وبالمقابل توجه اليهود نحو دعم اليمين المتطرّف سياسيًّا، والأهم من كل هذا تمكين اليهود من نشر هذه الأساطير في كامل أوروبا والغرب من خلال بوابة اليمين المتطرّف.

6ـ هناك عدد من النخب الإسلامية، أو المحسوبة على الإسلام، التي تدعم هذه الأساطير وتبررها، رغبة منها في كسب رضا اللوبيات اليهودية والعنصرية الفرنسية، لكن ما لا تدركه هذه النخب، هو أن مصيرها مع هذه الجماعات العنصرية، لن يكون أفضل من مصير الخونة الذين حاربوا مع فرنسا ضدّ بني جلدتهم في الجزائر والمغرب وتونس ومالي، حيث تُترك معظمهم في بلدانهم ليتجرّعوا مهانة الذل والخيانة بين أبناء وطنهم، وأُخِذ القليل منهم ليعيشوا بقية حياتهم في أدنى التصنيف، بصفة أشباه مواطنين؛ من الدرجة الرابعة أو الخامسة.

8ـ بعد النجاح الذي حققته هذه الأساطير في الواقع، وخوفًا من فقدان الأوعية الانتخابية، تميل المؤسسات السياسية الرسمية، كالدولة والأحزاب السياسية الفرنسية، بما في ذلك اليسار إلى تبنّي -ولو جزئيًّا-بعض أفكار هذه الأساطير، لسحب البساط من تحت أرجل اليمين، وحرمانه من فرس المعركة الأساسي، وهذا ما يفسر غياب الإرادة السياسية لتعديل التشريعات العنصرية والتمييزية التي لاحظها تقرير اللجنة الأوروبية لمناهضة العنصرية واللاتسامح. إن المخيف في هذا الأمر هو أن يؤدي هذا التوجه في نهاية المطاف إلى تقوية اليمين المتطرّف، وتفكيك الجبهات التي تَعدّ نفسها معتدلة، وهو ما سينعكس سلبًا على المسلمين في فرنسا، وينبّأ بمستقبل أكثر سوءًا لهم.

الهوامش والمصادر:

1. Daniel J. Vitkus, "Early Modern Orientalism: Representations of Islam in Sixteenth and Seventeenth Century Europe", In David R. Blanks; Michael Frassetto (Editors), Western Views of Islam in Medieval and Early Modern Europe: Perception of Other, (New York: St. Martin's Press, 1999), p226.
2. Vincent Geisser, "Islamophobia in Europe: from the Christian anti-Muslim prejudice to a modern form of racism", In Ingrid Ramberg (Seminar reporter), Islamophobia and its consequences on Young People, (European Youth Centre Budapest 1–6 June 2004, Directorate of Youth and Sport of the Council of Europe), p39.
3. Farid Abdelkrim, "The consequences of Islamophobia on young men. The viewpoint of a Muslim citizen of France", In Ingrid Ramberg (Seminar reporter), Islamophobia and its consequences on Young People, (European Youth Centre Budapest 1–6 June 2004, Directorate of Youth and Sport of the Council of Europe), p. 84.
4. Dhaya Ramarajan and Marcella Runell, "Confronting Islamophobia in Education", Intercultural Education, Vol. 18, No. 2, (May 2007), p. 87.
5. Ömür Orhun, "Intolerance and discrimination against Muslims (Islamophobia)", Security and Human Rights, 2009 no. 3, p. 194.
6. Andrew Shryock, "Islam as an Object of Fear and Affection", In. Andrew Shryock (Editor), Islamophobia /Islamophilia: Beyond the Politics of Enemy and Friend, (Bloomington and Indianapolis: Indiana University Press, 2010), p. 02.
7. Sandrine Basilico, « Mythes, rites et tribalisation des sociétés post-modernes », Esprit Critique, Vol.06, No.04, (Automne 2004), p. 133.
8. Hadda CHENINI, Du mythe fondateur de la Reine de Saba à ses différentes réactualisations dans la littérature algérienne d'expression française, pour une étude de la « femme sauvage », croisée issue du double mythe de la Reine de Saba et de la Kahéna dans Nedjma de Kateb Yacine, Mémoire de magister de Français, Université de Ouargla, 2008-2009, p. 15.
9. Sandrine Basilico, « Mythes, rites et tribalisation des sociétés post-modernes », Esprit Critique, Vol.06, No.04, (Automne 2004), p. 133.
10. La Commission européenne contre le racisme et l'intolérance(ECRI), Rapport de l'ECRI sur la France, (Strasbourg : Conseil de l'Europe, Publié le 1er mars 2016). pp. 13;
11. ibid
12. ibid
13. Dalal Alshammari, "Islamophobia" , International Journal of Humanities and Social Science, Vol. 3 No. 15, (August 2013), p. 177.
14. Renaud Camus, Le Grand Remplacement, (Paris: Editions David Reinharc,

.(2011
15. Guillaume FAYE, La colonisation de l'Europe discours vrai sur l'immigration et l'islam. (Paris: l'AEncre, 2000), p. 08.
16. Guillaume FAYE, La colonisation de l'Europe discours vrai sur l'immigration et l'islam. (Paris: l'AEncre, 2000), p. 08.
17. Eric Zemmour, Le suicide Français, (Paris: Éditions Albin Michel, 2014), p. 487.
18. Olivier Fay, « Le Front national se déchaîne sur l'islam », Le monde du 04/12/2015, En ligne, disponible sue <http://www.lemonde.fr/elections-regionales-2015/le-front-national-se-dechaine-sur-l-islam_4823922_4640869./04/12/article/2015/05/html#vPEPfpw0ItjJCKT3.99>, consulté le 12/2016 à 20 :00.
19. AlertInfo « Sarkozy serait-il un raciste antimusulman, un islamophobe? », En ligne, Disponible sur < http://www.alterinfo.net/Sarkozy-serait-il-un-raciste-antimusulman-un-islamophobe_a6333./02/07/AlertInfo du 06/12/2016/05/html#K1rsiEjWRJ6eHu8d.99>, consulté le 12/2016 à 22 :00.
20. Alexandre Pouchard, « Les actes islamophobes ont bondi en 2015, les actes antisémites encore à un niveau élevé », Le Monde du 20.01.2016, En ligne, Disponible sur < http://www.lemonde.fr/les-decodeurs/article/2016/01/20/les-actes-islamophobes-ont-bondi-en-2015-les-actes-antisemites-encore-a-un-niveau-eleve_4850653_4355770.html », consulté le 12/2016/05, à 23:00.